

وظائف النداء

مقاربة تداولية في ديوان (نداء الضاد)

الشاعر أكرم جميل قنيس

الدكتور: السعيد عموري

قسم اللغة العربية وآدابها - المركز الجامعي تيبازة -

ملخص :

يندرج المقال الذي في خانة البحوث التي تعنى بمقاربة اللغة الشعرية مقاربة تداولية، من خلال ديوان (نداء الضاد) الذي يعتبر صرخة حرى في سماء الدفاع عن لغة القرآن الكريم، وفيه نقرأ وظائف اللغة التي تجعل من الأفعال تتحقق في مدارها السياقي الذي يضمن بدوره نجاح الوظيفة التواصلية للغة. وفي مقالنا هذا نقارب النداء باعتباره فعلاً إنجازياً يرتسم بصيرورة مختلفة، تحددها السياقات المختلفة عبر سيرورة الكتابة الشعرية.

نقارب فعل النداء في ديوان (نداء الضاد) للشاعر السوري أكرم جميل قنيس، من خلال طرحنا لجملة أسئلة تدور في فلك البحث عن المعنى من خلال توظيف النداء وقراءة انزياحه وتعالقه مع الوحدات الخطابية في تشكيل أنساق دلالية تغني الوحدات اللغوية في صنع الدلالة. لنخلص أنّ فعل النداء كان محور العملية التخاطبية في الديوان وقد جمع إليه كل البنيات اللغوية، بحيث اشتغلت على فتح دلالاتها خدمة لفعل النداء، ما دلّ على أنّ اللغة الشعرية في ديواننا صادقة نابعة من لسان صادق ينادي أبناء العربية الالتفاف حول اللغة العربية الهوية والوجود والأصل.

الكلمات المفتاحية: التداولية، الفعل، (نداء الضاد)

Abstract :

This paper deals with the pragmatics of poetic discourse. It focuses on vocative style by making an approach of its esthetic functions in the language of poetry through pragmatic criticism's viewpoint. However, the divan is Djamil Konbos's (Nidaa adhad) which is a set of texts that defend the arabic language and claim for protecting it.

The key question in this study was about the value of vocative style in strengthening both the meaning and the signification.

We resulted that the vocative style in the divan takes several functions post rhethoric.

Keywords :Pragmatics, vocative style , Nidaa adhad.

مقدمة :

أثارت اللغة العربية في عصرنا الحالي جدلا واسعا لامس كل فروع المعرفة التي تؤسس للحضارة المعاصرة، مسائل اللغة ذاتها عن مقدرتها على مواكبة صيرورة العصر والتحويلات الكبرى للإنسانية في حضارتها الجديدة القائمة على منطق القوة المادية، غير أن الأمر في وطننا العربي يُطرح على خلاف ذلك ليتساءل عن هويتها وقيمتها بين أبنائها، لا اعتبارها لغة الدين الاسلامي الذي صار هوية قارة تفاخر بكون اللغة العربية الغنية بكل غناها وثرائها واتساعها عمادا لهذا الدين الذي زادها رفعة وانتشارا وخلودا.

إن قضية الدفاع عن اللغة العربية في العصر الحالي لم تعد فقط قضية اختيارية بقدر ما صارت قضية مبدأ وواجب وحتمية دينية تقع على عاتق كل مسلم غيور على لغة القرآن، كما تقع بخاصة على عاتق أبنائها بما حباهم الله من الانتماء العرقي اليها وكونها اللغة الام لهم.

نتألم كما تألم الشاعر أكرم جميل قنيس في ديوانه نداء الضاد، على حال لغة القرآن اليوم التي تنادي أبنائها كما نادتهم من قبل وأجابوا -ولنا في تراثنا العظيم ما نفخر به بين سائر الأمم- تنادي أبنائها لعلهم يجيبوا النداء. وفي دراستنا هذه نحاول مقارنة فعل النداء تداوليا كجمالية لغوية وشعرية خاصة تخرج عن إطار

وظيفتها الإبداعية إلى وظائف تأثيرية هامة يحددها السياق الشعري في النصوص التي بين أيدينا.

إن اختيارنا للمنهج التداولي لقراءة فعل النداء نابع من تساؤل منهجي عن فائدة الشعر إن كان لا يتداول - بالمفهوم الذي يقصد إلى الفعالية والمشاركة -؟ وبذلك فإنّ منهجنا يعدّ من بين أهم المناهج اللسانية المتعلقة بمستويات التلقي ودلالات الأنساق التواصلية.

تناولت الدراسة في الخلفية النظرية تحديد مفهوم التداولية عند الغرب كونها منهجا نصانيا حديثا، وكذلك اصولها التراثية في تراثنا العربي، ثم قدمنا في الجانب التطبيقي مقارنة بعنوان تداولية الخطاب الشعري، وفيه حاولنا بسط الحديث عن المؤشرات المفصلية الفاعلة في فعل التداول عبر نصوص المدونة، وبخاصة مؤشر النداء الذي لا يعتبر فقط فاعلا لغويا بلاغيا ولكنه فاعل نفسي يعبر عن العربية واغترابها في أوطانها قبل العالم من حولها.

في المجال المفهومي لمصطلح التداولية:

تجدّد طبيعة اللغة - في الدرس التداولي - وتفهم في قيمتها التواصلية، يقول جفري ليج (لا نستطيع حقيقة فهم طبيعة اللغة ذاتها إلا إذا فهمنا التداولية - كيف نستعمل اللغة في الاتصال)¹ والتداولية تتصل بعدديد الموضوعات ذات الأهمية الكبيرة في الدراسات اللسانية بصفة عامة، وقد صار لها محاولات تطبيقية منشورة عبر دراسات عديدة تهتم بتطبيقات المنهج التداولي في الابداع الأدبي وفي الشعر بخاصة، على الرغم مما انتقد به الدرس التداولي من عدم القدرة على تطبيق مبادئ المحادثة لغرايس PAUL. GRICE على النص الأدبي لوجود ميزة الخيال والمجاز فيه والتي تشكل مسافة نقل المعنى الحقيقي وغير المباشر بين المخاطب والمخاطب.

كما أنّ موضوع التداولية يمكن أن يكون إضافة سياق الاستعمال للدلالة، ف(يمكن أن يكون موضوع التداولية هو نفسه موضوع الدلالة الثابت، بإضافة سياق الاستعمال contexte)² من هنا فمنطلق التداولية يتجلى في صورة البحث عن القصدية من خلال استعمال اللغة عبر السياقات ومن خلال قراءة أفعال الكلام وأنواع المعنى، فهي « دراسة كيف يكون للمقولات معان في المقامات الخطابية »³ وتقوم على مفاهيم ثلاث يمثل تحديدها أساس الدرس التداولي لوجودها متضمنة القراءة التداولية لكل الخطابات وهي⁴:

أ- مفهوم الفعل:

يتجاوز مفهوم الفعل في التداولية مفهوم تمثيل العالم وإنتاج ألفاظ دالة على المعاني، إلى القيام بفعل وممارسة التأثير من خلال استعمال اللغة، هذا المفهوم الذي أسس لنظرية أفعال الكلام، وقد قسم أوستن Austin الأفعال إلى إنجازية *actes performatifs* وتقريرية أو واصفة *actes constatifs*؛ بحيث يقترن في الأولى الإنجاز بالتلفظ نحو (بعث، اعتقدت...) فالعمل هنا دلالة اللفظ، وفي الثانية تصف حالة عالم مستقل عن التلفظ نحو (اقتربت الساعة)، إلى جانب ذلك فقد قسم سيرل Searle الأفعال الإنجازية إلى خمسة أصناف (التأكيدات، الأوامر، الالتزامات، التصريحات، الإدلاءات) وهو تقسيم يصب في خانة المفهوم التداولي للفعل أو الممارسة الفعلية للغة التي ترتبط دلالتها الفعلية بالحال أو السياق.

ب- مفهوم السياق: يعني الموقف الفعلي توظف فيه الملفوظات، والمتضمن بدوره لكل ما نحتاجه لفهم وتقييم ما يقال

ج- مفهوم الكفاءة: ويعتبر مفهوم الكفاءة إشارة اعتماد التداولية لاستعمال اللغة في السياق أو هي حصيلة إسقاط محور الفعل على محور السياق وبناء على ذلك تتحدد كفاءة وميزات المتكلمين.

إنَّ سيرورة العمل التخاطبي للوصول إلى المعنى يتحدد عبر سيرورة خطية تنطلق من المتكلم الذي يحاول إنجاح خطابه، مروراً بمحتوى الرسالة وما يستلزمها من خصائص تضمن نجاح التواصل وصولاً إلا احتياجات السامع الذي يكيّف الرسالة وفق احتياجاته. وإذا كانت التداولية تعنى بالجانب التواصل وتحوّل - كما يرى بيرس peirce - أن تكون منهجاً من أجل تقرير دلالة الألفاظ الغريبة، فإنها تُعنى أساساً في إجراءاتها التطبيقية (بفهم الجملة الواحدة من الكلام فتذهب في البحث عن طبيعة وضعها انطلاقاً من العناصر المعجمية إلى المؤشرات النظامية أو المعطيات السياقية) ⁵.

1-2-: الجذور العربية للدرس التداولي:

ورد الجذر (دول) في لسان العرب لابن منظور على أشكال عديدة تجتمع في كونه يؤدي فعل الانتقال وقد ورد «في حديث الدعاء: حدثني بحديث سمعته عن رسول الله، لم يتداوله بينك وبينه الرجال، أي لم يتناقله الرجال وترويه واحداً عن واحد، إنما ترويه أنت عن رسول الله ﷺ» ⁶.

يرجع المصطلح إلى مادة دول وقد وردت على أصليين أحدهما يدل على تحول الشيء من مكان لآخر، والآخر يدل على ضعف الاسترخاء فقال أهل اللغة أندال القوم: معناه

تحولوا من مكان لآخر، ومن هذا الباب تداول القوم الشيء بينهم: إذ صار من بعضهم. والدولة والدولة لغتان، ويقال بل الدولة في المال والدولة في الحرب وإنما سميا بذلك من قياس الباب، لأنه أمر يتداولونه، فتحول من هذا إلى ذاك ومن ذاك إلى هنا.

فمدار اللفظ في مادة دول هو التناقل والتحول بعد أن كان مستترا في موضع ومنسوبا إليه وقد اكتسب مفهوم التحول، ولعل الصيغة الصرفية التي عرف بها تجعله أكثر دلالة على التناقل والتحول وتعدد الحالة. وهي الدلالات التي تناقلتها المعاجم الأخرى، فقد قدمها الزمخشري على أنها التناقل و«الله يداول الأيام بين الناس، مرة لهم ومرة عليهم.. والماشي يداول بين قدميه: يراوح بينهما، وفعلنا ذلك دوايك أي كرات بعضها في أثر بعض»⁷ ويمكن أن نخلص إلى أن للمفهوم مجالات منها:

الاسترخاء للبطن بعد أن كان في حال أخرى غيرها (أندال البطن)

التحول من مكان إلى مكان (اندال القوم)

التناقل من أيدي هؤلاء إلى أيدي هؤلاء (اندال المال)

الانتقال من حال إلى حال (الحرب)

التمكين من حال دون آخر (الدولة) ومنه فهي تعنى بما يفعل الانتقال والتعدد

تتوافق مجموع تلك المعاني الدالة على التناقل والتحول من حال إل حال، مع طبيعة اللغة ذاتها كونها ظاهرة اجتماعية متحولة ومتداولة تعتمد معانيها على مستوى السياق الذي يضمن حدا أقصى للمعاني اللفظية القارة، فاللغة منتقلة بين الناس يتداولونها بينهم منذ الأبد إلى الأزل، ومن أجل ذلك كان مصطلح (تداولية) أكثر ثبوتا من المصطلحات الأخرى الذرائعية، النفعية، السياقة... وغيرها.

3-1- مبادئ المنهج التداولي:

يركز المنهج التداولي في جانبيه النظري والتطبيقي على التوضع في مجال مفهومي يفرق بين وضع اللغة وبين استعمالها، ذلك أن دلالة الوضع كما يعرفها اللغويون هي دلالة الألفاظ والجمل على المعاني في حالتها الصورية المطلقة بغض النظر عن السياق التخاطبي بينما دلالة الاستعمال هي دلالة اللفظ والجملة على المعنى ضمن سياق معين.

إن استعمال اللغة هو جوهر الدرس التداولي على الرغم من استناده على الوضع وقيامه عليه على اعتبار أنه نقطة التقاء واشتراك بين المتكلمين، ولكن استناد الاستعمال

إلى الوضع اللغوي أمر نسبي لأن الاستعمال يجوز الوضع على أساس اختلاف السياقات الذي يستلزم اختلاف المعاني، ومنه جاء معنى المجاز اللغوي. لذلك يمكن الحديث عن دور المنهج التداولي في النصوص الإبداعية التي تعتمد على جماليات المجاز اللغوي في انفتاح المعنى وبناء جسوره بين القارئ والكاتب.

لعلّ أبرز ما يظهر في العملية التخاطبية هو قيمة الخطاب المرسل، أو مدى نجاح المُخاطب في إرسال خطابه وتبيان معناه، ويعد مقياس غرايس [1] المبادئ المحادثة معياراً هاماً قدمه التداوليون في محاولة ضمان حد أدنى لضمان نجاح الخطاب، على اعتبار أن غرايس يعتبر المحادثة عملية مشاركة ومعاونة بين المتكلمين، فقد صاغ «مبدأ التعاون الذي يقتضي أن المتكلمين متعاونون في تسهيل عملية التخاطب وهو يرى أن مبادئ المحادثة المتفرعة عن مبدأ التعاون هي التي تفسر كيف نستنتج المفاهيم الخطابية»⁸ ويمكن تلخيص هذه المبادئ كالتالي:

- الكمية (مبدأ الكم) Quantité: أن يكون الخطاب غنياً بالأخبار بشكل كاف فقط دون زيادة بحيث «نقل ما هو ضروري بالضبط ولا نزيد أكثر من الضروري» فتتحدث بالقدر الذي يضمن تحقق الغرض.
- الكيفية (مبدأ الكيف) Qualité: أن يكون الخطاب صائباً وحقيقياً اعتقاداً ولا يفقد البرهنة على ذلك فلا «تقل ما تعتقد أنه كاذب ولا تقل ما لا تستطيع البرهنة على صدقه»
- الصيغة (مبدأ المناسبة) أو حكم الكلام Modalité: أن يكون واضحاً غير مبهم موجزاً منظماً فيجب «أن يكون كلامك مناسباً لسياق الحال»
- العلاقة Relation: أن يكون دقيقاً وأن تكون المساهمة دالة (ذات بال) للحديث.

على الرغم مما انتقدت به آراء غرايس في مبادئ المحادثة إلا أنها بقيت أساساً للدرس التداولي، فقد عيب عليها كونها قاصرة في تطبيقاتها على ولوج واستيعاب مسافة التواصل بين متلقي ومبدع النص الأدبي؛ فمبدأ الصيغة والعلاقة لا يمكن أن يأخذ بهما النص الشعري أو الإبداعي على اعتبارات اللغة المجازية.

2. مؤشر النداء في تداولية الخطاب الشعري في ديوان (لنداء الضاد)⁹

1-2- مؤشر النداء:

النداء هو أول وأهم مؤشر تتمحور حوله كل الخطابات، وقد وُظف في المدونة بصيغته

المعلنة عبر توظيفين، أهمهما أنه عنوان المدونة وثانيهما كونه عنوان أحد النصوص، وقد استعملت كلمة (نداء) بصيغة الاسم للدلالة على ثباتها، وعلى تأكيد معناها في ذهن المتلقي من خلال أهم ما في خطاب المدونة وهو لسان الخطاب الشعري الذي كان كله نداء من اللغة العربية إلى الإنسانية جمعاء وإلى أبنائها بصفة أخص، وقد اشتغلت عبر النصوص بطريقة أفقية تجعل من كل النصوص تتحرك بصفة دائرية حول المؤشر كمحور وكبؤرة حدث، أي إن تقديمها كعنوان وانتشارها عبر كل النصوص يجعل من تلقيها فعلا لا شعوريا؛ لأن من أهم ميزات اللغة الشعرية عند جميل قنيس الابتعاد عن الغموض، فالمتلقي لا يجد مساحة غموض يبحث عن دلائلها بين النصوص وبين المؤشرات بقدر ما يجد الطريق مفتوحة لتلقي أوجه النداء، وهذه السبيل التي قدم بها الشاعر نصوصه (الاعتماد على المباشرة) سبيل - على ما نعتقد - فرضه سياق الموقف، والضرورة الملحة التي استوجبت نداء الاستغاثة من اللغة العربية التي بهتت ألوانها وخفت أوارها، حقيقة لا مجازا.

إن الأمر في المدونة أشبه بنداء الكارثة الإنسانية المستعجلة التي لا تقبل التفاوض والمعاضلة، لذلك كان نداء العربية هو نداء العربي الجريح الذي ينادي قومه بنداء (ارحموا عزيز قوم ذل)، وتظهر الكلمة عبر النصوص بدأ منذ نص الإهداء وانتشر عبر كل النصوص في أشكال مختلفة، وفي العملية الإنتقائية التالية قمنا - تبسيطا وتوضيحا لمنهجية الدراسة - بتبيان كيفية الانتشار بين المباشرة وبين الصفات والأشكال المختلفة؛ حيث انتخبنا من كل نص بيتا واحدا أو مثالا لانعكاس مؤشر النداء على النص، وهو انتخاب حاولنا فيه - قدر المستطاع - أن يكون نموذجيا على اعتبار أن مؤشر النداء هو قطب الرحي في تشكيل النصوص، لذلك كان كل بيت منتخب هو محور النص الذي ينتمي إليه:

مجموعة 1: النداء المباشر:

نلاحظ في هذه المنتخبات أن النداء فيها قوي واضح ومستعجل لا يقبل التأخير؛ وقد تنوعت فيه المؤشرات اللغوية بين أحرف وألفاظ وعبارات؛ ففي نص الإهداء كان الخطاب موجهها تماما إلى أبناء الأمة العربية (الحرف إلى)، الذين صاروا إلى الضعف والهوان وهو أهم ما يركز عليه الشاعر، لأنه يعي أن المصاب في مغادرة الأبناء لأهمهم:

إلى أمة غادرت ضادها لتحفل في ترّهات العجم¹⁰

وفي نصوص المجموعة يتضح تماما النداء المباشر من اللغة العربية ومن الشاعر (لسان الضمير العربي) في ألفاظ وعبارات عديدة هي على التوالي (ابلغتك، جاء المشتكى، يا

شباب العرب) وكذلك في الصيغ البلاغية للاستفهام الإنكاري (كيف نجفوها؟، مالي أرى جيلاً يمزق أضلعي؟) التي تجعل من النداء في أقصى صور الاستعجال حينها يصبح الداء عقوقاً من الأبناء وليس عدواناً من الغرباء:

لقد أبلغتكم نصحي وشوقي «وإن القول ما قالت حذام»¹¹
 من عيون الضاد جاء المشتكى ومضى يرثي العقوق العربيا¹²
 يا شباب العرب ماذا نرتجي ولسان الضاد فينا ينتحب¹³
 كيف نجفوها ونرجو دونها سبق الغزاة¹⁴
 - فمالي أرى جيلاً يمزق أضلعي ويسقي حروفي المرسلات عذاباً¹⁵

مجموعة 2: نداءات أخرى:

لا نقصد بالنداءات الأخرى إلا المسميات التي انتقل بها الشاعر من خطاب العموم، إلى الجيل وأبناء الجيل والإنسانية جمعاء، إلى خطاب الخصوص حينما نجد النداء لمسميات بعينها هي المعلم والبنيت، طالب العلم، والمعلمة، والأم وغيرها، وهي نداءات منتقاة من الشاعر على أساس إطلاق الجزء وإرادة الكل؛ أي أننا أمام نماذج بشرية هي ركائز الأمة وأجزاؤها، وإن كان النداء في خطاب المدونة إلى الأمة فهو هنا إلى الأمة من خلال نماذجها وركائزها، حيث يركز على قيمة تلك الركائز وما يستوجب في حقها في رسالة توجيهية للأمة للحفاظ على أساس بنائها، ولإبراز أن جرح الضاد وصل إلى أعماق الجسد العربي، والنماذج سابقة الذكر تبرز ذلك؛ حيث كان البيت الأول خطاباً للمعلم الذي اعتبره الشاعر قتيل قومه في الوقت الذي يفترض أنه عمادها الذي يحافظ على ماء وجهها.

كما نجد الشاعر يعيب الزمان الذي غدا فيه نكرات الأمة فوق معارفها في اللفظة تنكرت التي زادت الدلالة قيمة في ذهن المتلقي بصيغتها التأكيدية، وفي المثال الثاني يدعو أهل العلم إلى الصمود وحمل نبراس اللغة العربية والذود عن حماها، وقد جعل الشاعر من الخطاب رسماً تراثياً متعالياً من خلال فعل المضارع (تصرع) ثم أفعال الأمر (اختر، احفظ) بطريقة ترسم لدى المتلقي لوحة أبطال الحروب التي كان من ألوانها الأسماء (الفتح، صقر) وكأن الصيغ الثابتة للأسماء هي محاور حركة الأفعال وقطب رحي الحرب هو اللغة العربية التي قدمها الخطاب بثبات قوي بلفظة (حرفه) في قوله:

يا من تنكرت البلاد لفضله فعداقتيل معارف النكرات...⁶¹
 - وإذا دجا ليل يقيّد فجرها فلأنت تصرع بالمني الأهوالا
 فاحر عباب الفتح يا صقر الهدى واحفظ لدينك حرفه اللاّلا¹⁷

والأمر نفسه ينطبق على الأمثلة التالية المتقاة من نصوص مختلفة؛ حيث يقدم الخطاب التيمة الأساس في المدونة من خلال مخاطبة المعلمة التي تتقلد من الوظائف في المجتمع ما يجعلها تتبوأ مكانة عالية لجمعها بين حنان الأم في التربية وفي التعليم، وبها تشرق شمس العروبة، وهي هنا أمل الشاعر في الذود عن حمى العربية. إن الشاعر هنا في حالة استنفار قصوى يسعى إلى استنهاض الهمم وجمع الأسلحة للتصدي للعدو المعروف الذي ينخر جسد الأمة ويثد روحها؛ فبعد أن رسم صورة الحرب بسلاح المعلم ها هو يناوش سلاحاً آخر وجسداً آخر لا يقل أهمية عن الأول، إنه سلاح الأم، المعلمة المربية فعبارتنا (بين يديك ميراث المعالي، بأيديك تبشير النماء) تقدمان الخطاب على أنه امتداد لما جعله الإسلام سلاحاً ضد كل عدو وهو توارث العلم والفضل الذي لن يبدأ إلا من عند الأم ترضع به الأبناء فيشربوا على الفضائل لأنها بلا شك أول المعلمين، ودائماً في صيغة الأمر نجد الخطاب ينحو منحى النداء في (تألّئي، هاتي) :

- فتألّئي يا غادتي بعيوننا فاليوم أنت أنت شمس المشرق¹⁸
 - فهاتي الكأس يا صهباء قلبي فبين يديك ميراث المعالي¹⁹
 - أنت لي نبع حياة ومنى بأيديك تبشير النماء²⁰
 - أبروا النساء فإن النساء وصايا الإله إلى كل شعب²¹

إن الشاعر في النصوص يطرق كل الأبواب التي من شأنها أن تحبى أسلحة ودروعاً ضد الغاصبين وهو الأمر الذي جعل من الخطاب موجهاً توجيهاً أفقياً لأكبر فئة من المتلقين، فمن خلال النماذج السابقة يتنقل الخطاب إلى الأبناء ولعل الخطاب إن كان موجهاً إلى ابنة الشاعر فإنه لا شك يرى فيها واحدة من بنات العروبة التي لا يدخر جهداً في نصحتها واستصحابها إلى المعالي لأنها مشروع تحقيق الحلم وشرع النجاة، ودائماً يتجه الخطاب منحى النداء، من خلال الحروف وأسماء الإشارة (إلى، أنت) التي جعلت من الخطاب مباشراً أكثر وتواصلها بقوة على أساس أن المتلقي -بحرف الإشارة- لا يشك في أنه المعني بالنداء

إلى السلاقي أراهن الأماني وهن اليوم أشرعة النجاة²²
وطني الحر أنت مهد سناه فأضيئي شموع كل بنان²³

في المثال التالي ينتقل الخطاب انتقالاً فعالاً حينما يشتغل على أنسنة الأشياء والأمكنة ويستنطق دار العريية ومنبع العلم في المثال في خطاب موجه إلى الطلاب بلغة بسيطة تناوش العقول ويتسم لها طلاب العلم، وفي هذه التقنية ما يجعل من فعل التداول أكثر فاعلية واتساعاً، فالمدرسة تعبر الشيء إلى معناه ودلالته حينما يتكلم ويقوم بأفعال إنجازيه (أيقظت، دعت) يشتغل السياق على تحويل دلالتها المباشرة إلى دلالتها المنحازة عن الأصل، على أن تبقى الدلالة العامة تشتغل في إطار النداءات التي يلحقها الشاعر بنداء العريية إلى أبنائها:

أيقظت مدرستي فجر المنى في حياتي ودعتني للفلاح
يا شموع العلم في مدرستي أنت من أبرأت في قلبي الجراح²⁴

ينتقل الخطاب في الأمثلة التالية إلى نداءات أخرى، هي نداء الجيل الشاب في نص (طلائع الفرحة الكبرى) والتقرب من كل فئاته على اختلاف أشكالها وألوانها، لأنّ المنحى العام في الخطاب يتمثل في نداء الأبناء على اختلاف طبقاتهم، للتأكيد على فعالية كل فئة في الذود عن اللغة العربية والهوية العربية؛ فحروف النداء تعمل على الهمس في أذن الجيل في المثال الأول يعكسها حرف النداء يا (للقريب) واقتراجه في السياق بألفاظ رقيقة (يرأ، الوهم) تشكل سياقاً شعرياً مهموساً، ثم يرتفع النداء في المثال الثاني بصوت عال فيه دلالات الحركة والقوة (هيا) الذي يقترن في السياق بحرف التأكيد (إن البلاد) فيزداد ويقوى نبر وتوتر الإيقاع في البيت.

يا من تقر به عين البلاد غدا كي يبرأ العمر من وهم ومن سقم²⁵
هيا نحصن سياج النشء من زلل إن البلاد بهذا الحصن تعزم²⁶

إنّ الترتيب في النصوص الشعرية -من خلال هذين المثالين اللذين قدمنا أنّهما قطبا الرحى في سياقهما الشعري- اشتغل بطريقة تصاعدية متعالية لرسم صورة النداء وللوقوف على حجم المأساة، من خلال حركة النص التواصلية المهموسة في البيت الأول، ومن خلال ارتفاع حركة النداء واقتراجه بالتأكيد (هيا، إنّ) في البيت الثاني، فترتيب النصوص في المدونة لا يمكن أن يكون اختياراً عشوائياً²⁷. وفي المثال التالي يتوجه

النداء إلى الأمة عبر فئة اجتماعية لا تقل أهمية عن الفئات الأخرى؛ وإن كانت مميزة عنها بكونها تحتاج إلى رعاية خاصة، وقد أراد الشاعر المنشئ أن يستنهض همة المعوق (فعل الأمر جدد) ومن خلاله الفئة الاجتماعية ويضرب بها الأمثال حتى جعل قيمتها مقرونة بقيمة الرسل:

جدد خلاياك في عصر عدمت به

موتا فلا عاش عصر يقتل الرسل⁸²

إن الأمثلة السابقة تجتمع في نقاط مشتركة أهمها أن النصوص التي تنتمي إليها كان النداء فيها موجها إلى قيم بعينها، ومن خلالها توجيه النداء العام للأمة للنهوض بها والذود عن الهوية من خلال المعلم في مدرسته، وطالب العلم في منبره، والأم في تربية الجيل والمعوق قوي الإرادة، وغيرها من النداءات التي نعتبرها غير مباشرة على اعتبار تخصيص الخطاب.

المجموعة 3: نداء مباشر

في الأمثلة التالية التي يمكن أن تسمى النداءات المباشرة تعود الخطابات من مسيرة التخصيص في الأمثلة السابقة، إلى مناوشة التهمة الأساس وتقديم الضاد في صورة بكائية جعلت من نصوص المجموعة المتقاة منها الأمثلة نصوصا باكية دامعة، والخطاب فيها يخضع دائما للميزة الأساس أي ازدواجية الإرسال؛ ففي المثال التالي نجد النداء مباشرا من شاعر الضاد الذي يختتم مسيرة النداءات عبر المجموعة الثالثة، بشكوى ورجاء بصيغة ثنائية متناقضة اشتغلت بطريقة فاعلة في تقديم النداء حيث لا نجد فارقا ومساحة بين طرفي الثنائية الشكوى والرجاء، السلب والإيجاب، الألم والأمل، الألم من الواقع المر والأمل في مستقبل العربية الهوية والدم والدين ولعل الانتظار هنا خصبا ليس عقيبا؛ لأن الشاعر يقدم أمله بصيغة الأمر المقترن بالنداء (أشركي يا شمس الضاد) وهي شمس عرفناها في خطابات المجموعة الثانية التي تعكس الفئات المؤسسة للبناء العربي، لغة وهوية ووطنا.

فقد رماني الزمان المر بينهم

حتى اعتراني الأسى والحيف والضرر

فأشركي يا شمس الضاد ثانية

فإنني فوق هذا الجمر أنتظر⁹²

في المثال التالي يتوجه النداء نحو تصعيد اللهجة والوضوح التام لغرض النداء وهو هنا الدعوة المباشرة إلى جهاد أعدائها بكل عدة ممكنة؛ بحيث ينزل الشاعر من الخطاب العلي التوجيهي التعليمي إلى مستوى المخاطب في (يا صاحبي)، وكأن الشاعر يجعل نفسه جندياً في ساح الوغى ويكون أول قدوة فعلية في ميدان الدفاع عن اللغة العربية.

يا صاحبي إن كنت تعشقها حبا من المهد إلى اللحد
فأدر على الأعداء دائرة تفريهم بالمشافر الغمد³⁰

في المثال الأخير ينادي الشاعر أبناء العربية نداء المستغيث لباكي، نداء من لا يمكنه الانتظار لأن القلوب بلغت الحناجر والدموع أغرقت القلوب.

فيا أبناءها كونوا أباة فكم دمعت بقلبي مقلتها³¹

لقد حاولنا في الأمثلة السالفة تبيان الحركة التواصلية للخطاب مع المتلقي الذي يشكل الدور الأهم في الخطاب الشعري، من خلال تتبع مسيرة النداء الذي يمثل أيضاً عنوان المدونة، وفيما يلي من الدراسة نركز على النداء كتشكيل لغوي في سياقاته المختلفة بدءاً بعنوان المدونة.

إنّ اللافت للانتباه في كلمة النداء هو تركيبها في نسق العنوان (عنوان المدونة وعنوان النص الأساسي³²) بصيغة الاسم المبتدأ المضاف؛ حيث يعرف الضاد بالإضافة الثابتة إلى النداء، وهي صيغة لها دلالاتها في تداولية الخطاب الشعري؛ من حيث إنّ القيمة الثابتة للاسم هي ثبات المحور الذي تتحرك حوله كل النصوص، والتي تتصف عبرها أشكال النداء المتعددة، وقد خبرنا تلك الحركة الرائعة للخطابات خدمة للنداء الأصل والتي مثلها المخطط سالف الذكر.

إنّ هذه الصيغة (نداء الضاد) تمثل جزءاً هاماً في التواصل بالطريقة التالية: إذا كان النداء بالمفهوم التداولي فعلاً إنجازياً، نادى ينادي، نداء، فإنه قد تحقق هذا الفعل في النصوص من جهة (نداءات مباشرة وأخرى غير مباشرة)، ومن جهة أخرى فإنّ تركيبه اللغوي (مبتدأ) أقحم المتلقي في البحث عن المسند إليه الذي يحقق النداء في التركيب؛ أي البحث عن خبر الجملة الاسمية، الذي لن يجده إلا في النصوص، فالنصوص في مجملها هي خبر الجملة التي شكّل العنوان مبتدأها، فالعمل إذن كل متكامل في جانبه اللغوي.

2-2: النداء كفعل إنجازي:

يمثل النداء مؤشراً أساسياً في خطاب المدونة عبر انتشار دلالاته وتحييناته وتحقيقاته اللغوية في النصوص بعامة، وقد يبدو بلبوسات عديدة مما يجعل تداولية فعل النداء تمثل شبكة من الأفعال الإنجازية والتقريبية المتفاعلة فيما بينها، لأنَّ الفعل في الدرس التداولي يتميز عن الفعل في الدراسات اللغوية الأخرى بميزات وخصائص التواصل³³. وإذا كان دور الأفعال الإنجازية منوط بتلك العلاقة التي تربط المتكلم بالمتلقي أساساً، على اعتبار تمفصل تلك الأفعال على حسب مهامها في الخطاب، فإنَّ الأفعال التقريرية صفة خاصة بالخطاب الشعري التي لا يمكن أن يكون شعرياً بغير تلك الانزياحات البلاغية والمجازات التي تشرك المتلقي في تداول الخطاب الشعري لأنها تقوم على (وصف عالم مستقل عن التلفظ ذاته) وهو الملمح البلاغي الذي يدخل في أبواب البيان بصفة عامة.

إنَّ مؤشر النداء في نصوص نداء الضاد يجمع إليه كل أنماط الفعل بحيث يكون النداء هو المحور الذي تنجز في فلكه كل الأفعال، وهذا راجع أساساً إلى كون الخطاب الشعري القنبي خطاباً تميز بميزة تغير وتعدد نقاط الإرسال؛ فعندما يكون الخطاب على لسان العربية نجد أنماطاً من الأفعال على خلاف التحول في الإرسال الذي يعرف أنماطاً من الأفعال تحتويها دائرة الإنجاز لأن أكثرها أفعالاً أمر.

من أجل ذلك يمكن أن نقول إنَّ الأفعال في نصوص المدونة يفصل في تحديد هويتها مؤشر النداء ومؤشر المرسل، والتحول في الخطاب هو تحول بالضرورة في حركة الأفعال بين الإنجاز والتقريبي إلا أنَّ مؤشر النداء هو المحور الذي يدور في فلكه كل الأفعال. ويقسمها إلى قسمين على حسب جهة الإرسال، سنأخذ هنا حالتين، أحدهما خطاب على لسان العربية والآخر متحول عنه إلى مرسل آخر سميناه الضمير العربي، وفي عجالتنا نركز على الأفعال التقريرية أي الخطابات التي على لسان اللغة العربية.

الأفعال التقريرية:

تتحكم ظاهرة ازدواجية الخطاب وتحوله في شكل الأفعال وتظهرها في النصوص القنسية، والأهم من ذلك أنَّ تحوّل الخطاب يتحكم في حركية الأفعال التقريرية؛ حيث إن لكل شكل خطابي، -بالنظر إلى نقطة الإرسال- ميزات وأدوار في حركية الأفعال، وتفصيلاً لذلك نقسمها إلى قسمين ففي الحالة الأولى يكون فيها المرسل هو اللغة العربية وفي الثانية يكون المرسل هو صوت الضمير العربي:

*المرسل: اللغة العربية:

إنَّ أهم مظهر مميّز حركية الأفعال في المدونة أنها تتجاوز تقرير الحقائق إلى تأكيدها إلى النداء بتغييرها، بمعنى أن الخطاب الشعري يقدم مؤشر النداء من خلال توظيف التدرج وحركية الأفعال من تقرير الحقائق إلى تأكيدها إلى النداء بتغييرها، فعندما نقرأ:

وعانيت من هم يغل بأضلعي ويهدي إلى أم العلوم خراباً³⁴

نجد أن هناك طريقاً طويلاً مصنوعاً من معاناة العربية ومن بوح الضمير العربي بمعاناتها، فتسير كل النصوص في موكب حزين لتشكّل حركة متعالية من السواد والقنطرة لا تنقشع إلى عند وصولها إلى غيوم النداء، أين يجد القارئ نفسه مقحماً في خطاب المنادى من خلال مؤشر انخطابية تواصلية أهمها مؤشر الاستفهام الذي يعتبر من أهم مؤشرات الإنجاز في وظائف اللغة الشعرية في المدونة.

إن معاناة العربية ومعاناة المنشئ (الضمير العربي) التي كانت لبنة أساس في بناء نصوص نداء الضاد تتمظهر بمظاهر كثيرة عبر كل النصوص وتجعل من المعاناة مؤشراً قوياً وقاراً تؤكد أنه من الأفعال منها:

أرى جيلاً يمزق أضلعي ويسقي حروفي الرسائل عذاباً³⁵

إنَّ في الفعل المضارع يمزق أضلعي دلالة قوية على فعل المعاناة حينما صار جسد اللغة العربية جسد متهاك ممزق وهي الصورة القارة التي تؤكد كدها كلمة جاءت في ختام التركيب وهي كلمة العذاب فيكون لوظيفة التصريح التام بالمعاناة تأكيد كامل لها. ومن النص نفسه نستقي أمثلة أخرى منها:

يا حسرة في القلب تسري سموها وتمتص من جذري الندي رضاها

الأبئس من أنضجت فيهم مواسمي إذ لم يهبوا للحفاظ غضابها

تتحوّل العربية وتحترق من أجل أن تنضج أمة تحفظ لها كرامتها وها هي اليوم ترى ما أنضجت وبالا عليها، جيلاً من الحيرة والضعف والشك في هذه (الأم) وها هي اليوم تبتئس لانبثاقها في غصة وحنق، وتتمنى أن ترجع نخوة العرب لتخفف عن صدر الحروف مصابها ومعاناتها:

ألا ليت فيهم للأصالة نخوة تخفف عن صدر الحروف مصابها

وفي بحر الحزن والتمني نجد العربية تقرر وتؤكد حالتها في البيت التالي حينما تصير الحروف إلى جثث ممزقة وحرف مهين، وتصير الكتابة رمادا لمتاع مستلب:

ففي كل سطر للكتابة غصة تمزق روحي نهبة وسلابا

وتمضي حركية الأفعال التقريرية التي تؤكد وتبين حقائق في مسيرة حزينة غاضبة تحققها الأفعال التقريرية التي تحيي من مرسل آخر هو الضمير العربي أو لسان المنشئ.

※المرسل: الضمير العربي:

إنّ الافعال التقريرية التي على لسان آخر غير اللغة العربية كانت في خدمة الخطاب المرسل من العربية وكأن هناك مزج وتدعيم في إقرار وتأكيد معاناة العربية من أيدي أبنائها أولا وأعدائها ثانيا: فالعربية تذبح على أيدي أبنائها ويستلب كنز من بين أصحابه

تذبح الفصحى على أيدي العرب يا لكنز من بلادي يستلب³⁶

إن فعل الذبح هو نفسه ما قررته العربية على لسانها عندما قررت أنّ الأبناء يمزقون أضلاعها، ويزيدون حسرتها، وهي الآن تتقاسم الحزن بينها وبين صوت الضمير العربي على لسان المنشئ حينما يؤرق عقوق الأبناء الذين لا يقدرّون قيمة الكنز الذي بين أيديهم ويرتمون في أحضان أعداء اللغة والدين منساقين في تبعية عمياء تسيرهم عقدة نقص تُفقدتهم أصل هويتهم.

يؤرقني العقوق إذا دجاها من الأبناء واجترحوا شذاها⁷³

وفي الأمثلة الكثيرة التي لا يسعنا المقام لسردها كاملة يتقرر ان مسيرة المعاناة اشتغلت على تأكيدها حركية سريعة للخطاب من نواح كثيرة، أهمها تعدد الإرسال الذي تبعه حركية الأفعال التقريرية الإنجازية التي نؤصل لها بمؤشر هام جدا نعتبر مقاربتة من صميم العمل التداولي الذي يسعى لربط المتلقي بالقارئ.

خاتمة:

لقد تميزت نصوص نداء الضاد، بتواصلتها التي ظهرت في مستويات الخطاب الشعري في رؤيته التداولية، فنقول إن مستويات درس التداولية وما فوق التداولية، أبرزت حسا تواصليا عاليا فقد عملت المؤشرات الخطابية كالنداء وأنواع الفعل على بناء جسر التواصل الشعري الذي أقحم المتلقي في العملية الخطابية، تماما كما يقحمه

التواصل الكلامي، وإن كانت ميزة النص الشعري هي اللغة المميزة له والتي تجعل منه أرقى فنون القول، فإن ذلك لم يمنع لغة نصوص الضاد من فعل الإضافة الوجدانية والمعرفية للمتلقي.

كانت نصوص نداء الضاد- في مستواها ما فوق التداولي- فسيفاء من المعارف المختارة بوعي ومن دون وعي من طرف الشاعر الذي ظهر- بفضل معجمه الشعري- حاملاً ثقافة راقية انصهر في بوتقتها دفق شاعري راق ينم عن قدرة في اقتحام المواضيع ذات الاهتمام الراهن خدمة للأمة وللإنسانية جمعاء.

الهوامش:

- 1- عادل الثامري، التداولية ظهورها وتطورها، الجريدة، Apr 27 2006. <http://www.aljaredah.com/paper.php?source=akbar&mlf=interpage&sid=10665>
- 2- fañoise latraverse.la pragmatique. Hstoire et critique.pierre mardaga. Bruxelles-1987.p137
- 3- محمد محمد يونس علي، مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب، دار الكتاب الجديد المتحدة، الامارات العربية المتحدة، ط1، 2004، ص13.
- 4- نواري سعودي أبو زيد، في تداولية الخطاب الأدبي، المبادئ والإجراء، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، سطيف، الجزائر، ط1، 2009، ص26-30
- 5- عبد الملك مرتاض، نظرية النص الأدبي، دار هومة، الجزائر، ط1، 2007، ص403.
- 6- ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1981. ص1455
- 7- الزخشري، أساس البلاغة، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، 1998. ص303.
- 8- محمد يونس علي. مدخل إلى اللسانيات. دار الكتاب الجديد المتحدة، الامارات العربية المتحدة، ط1، 2004. ص99
- 9- أكرم جميل قنيس، نداء الضاد، المجلس الأعلى للإعلام، الشارقة الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2008.
- 10- نداء الضاد، نص الإهداء، دون ترقيم.
- 11- نص قهوة العربية الفصحى، ص9.

- 12- نص نداء الضاد، ص 14.
- 13- نص تحيا لغتي العربية أم اللغات، ص 20.
- 14- نص العربية أم اللغات والحياة، ص 26.
- 15- نص عبارات العربية، ص 29.
- 16- نص مكارم أهل العلم، ص 34.
- 17- نص مهندس العقول الذي نريد، ص 40.
- 18- نص معلمتي دانة العلم، ص 43.
- 19- نص معلمة الفضائل، ص 47.
- 20- نص معلمتي نشيد الحب، ص 51.
- 21- نص أم الحياة، ص 82.
- 22- نص فتاة العلم، نور الحياة... وأسرعة النجاة، ص 58.
- 23- نص إلى ابنتي، ص 61.
- 24- نص، مدرستي فجر المنى، ص 65.
- 25- نص طلائع الفرحة الكبرى...، ص 71.
- 26- نص ثروة العقل، ص 76.
- 27- ترتيب النصوص لا يخضع فقط لضوابط موضوعية عند الناص بل يتجاوز ذلك إلى الاستعدادات النفسية واللاشعورية، لو كانت الدراسة سيميائية لكان لدور العلامات الأدبية فعالية في إبراز الدور الترتيبي للعتبات النصية.
- 28- نص أنفاس الأمل، أنفاس المعوق، ص 87.
- 29- نص شكوى شاعر الضاد، ص 92.
- 30- نص الضاد مفتاح الصلاح، ص 96.
- 31- نص دمعة الضاد، ص 99.
- 32- سميناه نص أساس لا اعتبار حمله لعنوان المدونة (نداء الضاد)، ولأنه أطولها، وبخصوص المتن فإننا نتعامل مع كل النصوص بالقيمة نفسها، إلا ما تفرضه النصوص من طاقة تعبيرية في مستوياتها اللغوية والتعبيرية.
- 33- يُنظر العنوان 3: مفهوم التداولية.
- 34- نص، عبرا العربية، ص 29.
- 35- نص، عبرا العربية، ص 29.
- 36- نص، تحيا لغتي العربية، ص 19.
- 37- نص، دمعة الضاد، ص 99.